

والثاني أكثر جرائد فرنسا انتشاراً. فكان لهذه الأسماء الصغيرة من حسن التوفيق ما لا يحالف الأعمال التي تبدأ بالألقاب الضخمة والأسماء الفخيمة.

زرت إدارة البقي مارسيليه فرأيت النظام مستحكما في كل ما يتعلق بها وهي اليوم في السنة الثالثة والأربعين من عمرها وأقدم منها بل أقدم جرائد مرسيليا السيمافوردي مارسيل أنشئت سنة ١٨٢٧ وهي من الجرائد الجدية المعبرة إلا أنها أقل انتشاراً. وهذه الجريدة تباع في مقاطعة الرون وما إليها مثلاً فنو فرضنا أن ما يطبع من جرائد مرسيليا ومجالاتها ينبع كل يوم مئوي نسخة لأصاب كل فرد في مقاطعتها جريدتان ونصف على أقل تعديل هذا عدا الجرائد الباريزية وغيرها التي ترد على مرسيليا وتباع في شوارعها بالألوف أيضاً.

ومن الأسف العظيم أننا لو أحصينا عدد ما يصدر من جميع الجرائد واخجلات العربية والتركية والفارسية في البلاد المصرية والعثمانية والإيرانية لا ينبع بكمية قدر ما تطبع كل يوم جريدة البقي مارسيليه إحدى جرائد ولايات فرنسا. وعلى هذه النسبة قس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيين وسجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ولا سيما في الأمور العقبية.

ليون

٨

ماذا يصف القلم من مدينة الفرنسيين وكل فرع من فروعها المدهشة لو تعاورته الأقلام الكثيرة وتوفرت على البحث فيه العقول الكبيرة لما كانت إلا إلى جانب القصور. نعم لو جاء في عصرنا الرحالة ابن حوقل وشاهد مدينة فرنسا فقط لحوقل واسترجع وقال هذه

حضارة ليس لنا في وصفها مطمع ولو أتى المسعودي بقلبه وعلمه لعجز عن الوصف والتسطير ولو جيء بابن بطوطة لأب من رحته الطويلة لا يحسن إملأ ما رأى وسمع ولو قام ابن جبير لا عترف بقصور ذرعه وعدم نفاذ طبعه وقال إن هذا إلا حلم وخيال ونحن لا نسجل في رحلتنا إلا ما تقع علينا أبصارنا ويترامى إلى آذاننا وتمسه أيدينا.

وبعد فمأذا يصف القلم في ليون أجهالها الطبيعي أم الصناعي. معاملها الحربية أم مدارسها وكنيتها أم انتظام شوارعها ودورها وقصورها وحدائقها أم غناها ومتاحفها وعادياتها وكنائسها ومصانعها ومعارفها ومكاتبها ومحازمها وحوانيثها وقائيلها وأنصائها وخطوطها الحديدية والكهربائية وجسورها الحديدية والحجرية وأرصفتها البديعة وساحاتها وحدائقها وغربها العظمين الرون والسون اللذين يقطعانها شطرين ويزيدان في بهجتها ما تقر به العين.

مأذا نذكر من ليون ثاني مدينة في فرنسا وقد شبهوها بموسكو الروسية في كونها عاصمة دين كما هي عاصمة صناعة وعمل. وعلى جسر ليون مر الصليبيون في القرون الوسطى ذاهبين إلى المشرق لإنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين. نعم مأذا نعدد من ليون وبدائع صنع الإنسان فيها وما ضمت من معاهد قديمة وحديثة ومشاهد بهيجة وبالله ما أعجب معرض نموذج الأنسجة الذي حوى أربعين ألف نموذج ليس لها نظير في العالم وعرضت على أنظار أهل البلاد والسائحين يتفنون بالنظر إليها ويستدلون بها على تفنن يد الإنسان في كسوة الأبدان.

لئن حرمت ليون من ميناء بحرية لتصريف مصنوعات بسرعة فإن البخار البري عوض عنها هذا الحرمان فزاد في عظمتها التجارية ففي كل يوم يمر في محطات سككها الحديدية

١٤٠ قطاراً جاثية ذاهبة من أنحاء شتى ولا سيما من الشمال إلى الجنوب. والمسافة بين باريز ومرسينيا ٨٥٠ كيلومتراً ليس فيها شبر واحد لا أثر لنعمران فيه يقطعها القطار بالسير السريع في ١٤ ساعة. وليون على مقربة من نصف الطريق بين باريز عاصمة البلاد ومرسينيا ثغرها والحكومة اليوم شارة بمد خط حديدي ثالث لتسير القطارات لأن الخطين الموجودين لا يتأتى أن يجري عليهما في كل بضع دقائق أكثر من قطار واحد مخافة أن يحدث اصطدام بين القطارات وسيكلف الخط الجديد بين باريز ومرسينيا مئات الملايين من الفرنكات وكل ذلك حتى لا يتأخر راكب ولا بضاعة وتأخذ كل جهة حظها من العمران.

لم تقف ليون عند حد الأعمال الصناعية والتجارية والمالية بأن كانت هي التي أسست مصرف الكريدي ليونيه مثلاً من أعظم مصارف العالم. بل لها حظ كبير من النهضة العلمية وأثر راسخ في الحضارة الفرنسية وناهيك بكتبتها التي تحوي فروع العلم ولا سيما الطبيعى والحقوق والطب والتجارة يختلف إليها ٢٥٠٠ طالب منهم الأجانب وفيهم نحو خمسين مصرياً أكثرهم ويدرسون الحقوق وقيل منهم الطب وأقل في التجارة والمصريون حديث عهدهم بترؤل ليون للتخرج في كنيستها وقد كثر ورودهم عندها بعد أن ترك المسير لامبر أحد أساتذة مدرسة الحقوق في القاهرة منصبه فعيته حكومته في كلية ليون أستاذاً فكان من أثر محبته للمصريين ومحبة المصريين له أن جذب عشرات منهم لتعلم في كنيستها وهو يشرف عليهم إشراف الأب على أولاده. وكانت مصر تعتمد في تنشئة أولادها من قبل على كليات الولايات الفرنسية ولا سيما كلية موبنيه وذلك

على عهد الخديوي إسماعيل لأنه كان يعتقد أن أهل موبليه أقل معاداة للسلوك وأبعد الفرنسيين عن التطرف.

قضيت في ليون يومين لزيارة معالمها ومشاهدة صديقي محمد لطفي أفندي جمعة الكاتب الخطيب الغيور فرأيت فيها غاية الرقي الاجتماعي والتكافل الإنساني والذوق الفرنسي وفي مثل مدينة ليون من قواعد البلاد تعرف حقيقة الفرنسيين لما يشهده السائح فيها من السكون والانقطاع إلى الأعمال الشريفة فلا يسفون كأكثر سكان العواصم في الأغلب لتكاسب الدنيئة أو يرضون بأن يكونوا عائلة على الحكومة يأخذون رزقهم من خزانها بالوظيفة والاستخدام.

وياما أبحر ساحة بئلكور (الفناء الجميل) يوم الأحد والرجال والنساء والأولاد غادون رائعون فيها لا تقرأ في وجوههم غير الأدب ولا في حركاتهم إلا التربية البيتية العالية والتشبع بالنظام المدني المعقول حتى إذا جن الليل يختلف القوم إلى دور التمثيل وأماكن النهو والطرب وسماع الخطب والمحاضرات وهكذا لينهم كنهانهم عمل وراحة واستفادة وإفادة أخذوا يحظوا وافر من دنياهم ولم ينسوا تعهد آدابهم. فليون بند طيب أمين يسكنه المهذبون العامنون.

ولقد كنت كنما وقع نظري في ليون على شارع عظيم أو بناء جسيم تحدثني النفس بسورية فأقول متى يا ترى يكون فيها مثل ما في ليون على الأقل ولو أن عمران ليون وحدها وهي إحدى مدن فرنسا وما فيها من قوة مادية وأدبية وزعت على سورية من عريش مصر إلى الفرات ومن البحر المتوسط إلى أقصى بداية الشام وحدود نجد والحجاز لغدت سورية وهي في مساحتها نحو مساحة فرنسا كنهها من حيث عمرانها أرقى مدن

المعصورة ولكن الرزق لا يأتي بالتسني والوجود لا يتفع به إلا من يحسن استخدام ما فيه من القوى والعناصر.

تحية باريز

٩

سلام عليك مرضعة الحكمة. وربية الرخاء والنعنة. وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية. وحيمة المدنية الأصلية في الأقطار الغربية والشرقية. ومعلنة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين. والضرب على أيدي الرؤساء والنبلاء والمالكين. أنت هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون بالنطف والذوق وفائدة العنم والعمل. أنت كنت في مقدمة العواصم التي انبعث منها تمجيد العقل بل تأليهه فقضيت بالتقدم له على كل شيء في الوجود. وبألفت في إكرام العقول من أبنائك.

سلام عليك يا عشقة الإبداع والاختراع. وسابقة الأقران في مضار الانتفاع بما حوت الرباع والبقاع. استخدمت القوى المادية فأحدثت استخدامها. واشترت القوى العقلية فأبدعت في استثمارها. وأحييت حضارات الأمم السالفة. وأنشأت لك حضارات لا يزال يحمدك عليها أسبق الشعوب إلى الترفي منها تقلبت بك الحال. ويجدون في أوضاعك ما ليس يجدون في أوضاعهم من المرونة والجمال.

سلام عليك يا واضعة حقوق الإنسان ومنقحة الأذهان بالتناغي بحب الأوطان والداعية إلى ثل عروش الجبارين والمخربين. أنت لم ترهيك تقاليد أبطال القرون الوسطى. والقدر بل أخذت بالأسباب والمسببات فقتلت من أراد قتلك. ووضعت من لم يهده رفعك. وكنت لناهضين من الناس خير مثال.